ظنوا أنها أسماء نساء واقعيات، اعتماداً على أقاصيص الرواة، لم تخل أقوالهم من التهافت والتناقض.

ولا يقل عن ذلك تهافتاً ما ورد في دراسات المعاصرين من أقوال عن انتشار السفور والاختلاط، وما ذكروه من أن المرأة الحجازية نالت حرية واسعة في الظهور أمام الرجال والتصدي للشعراء، وأنها كانت تفعل ذلك ليتغزلوا بها ويتغنوا بجمالها، وأن الرجال كانوا لا يجدون حرجاً في غزل الشعراء بنسائهم.

وفي الفصل الخامس تبين أن القول بأن علماء الحجاز كانوا يبيحون الغناء المتقن المصحوب بالآلات الموسيقية المختلفة غير ثابت وأن أكثر العلماء نقل عنه القول بتحريمه. كما اتضح أن أسانيد أغلب أخبار الغناء والمغنين الحجازيين في العصر الأموي غير صحيحة،وأن معظم رواتها من المغنين أو المجهولين أو المتهمين. أما دراسة مضمون تلك الأخبار فقد كشفت عن دلائل الاختلاق والتلفيق وعلاماتهما. ومما يؤكد ذلك أن آثار الغناء في الشعر الحجازي آثار باهتة جداً، وأن دواوين معظم الشعراء تخلو أو تكاد تخلو من ذكر الغناء سوى ما ورد لبعضهم من أشعار قليلة جداً تبدو على معظمها آثار الصناعة والتوليد، وهذا لا يتناسب مطلقاً مع ما روي لنا من أخبار تحدثت عن العلاقات القوية بين المغنين والشعراء، ولا سيما أن هذا الموضوع من ألصق الموضوعات بالشعراء وأقربها إليهم، وليس موضوعا جديداً بل سبق أن طرقه عدد من الشعراء الجاهليين.

ثم تحدث الباحث عن الخمر في الشعر الحجازي فبين أن معظم دواوين الحجازيين تخلو من الحديث عنه، وأن هذا الأمر ربما كان جزءاً من تأثير المجتمع، ثم عرض أقوال بعض المعاصرين عن انتشار شرب الخمر في الحجاز، وناقش حججهم وأدلتهم، وبيّن أنها حجج واهية وأدلة متهافتة.

أخيراً نأمل أن تكون هذه النتائج قد دفعت كثيراً من الأحكام الخاطئة والجائرة التي شوهت صورة المجتمع الحجازي في العصر الأموي، وبذلك تلتقي نتائج هذا البحث مع قول الرسول ﷺ الثابت في الصحيحين: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". ومع غيره من النصوص النقلية التي تدل على فضل ذلك المجتمع، وتوحي بأنه كان على درجة عالية من التمسك بأحكام الإسلام وآدابه. ■

الليلة الأخيرة

شعر: علي فريد
مصر

لستِ لي في هذه الليلة إلفا
نبع إحساسي بإغرائك جَفّا
صُمَّ سمعي عن نداءات الهوى
بصري عن هذه الفتنة كُفّا
لم أعد أعشق عينيكِ التي
كان لي محرابها بالأمس مرفا
زمن اللهو تولى فاهدئي
واستمعي الدهر الذي يعصف عصفا
ذلك الحب الذي أسكرني
حل ضيفاً ومضى عني ضيفا
إن همّي هاهنا يثقلني
إن بؤسي هاهنا يزداد عنفا
يخلف الدهرُ مواعيد اللقا
فإذا ما أوعد الفرقة وفّى
فاستريحي الآن من عبء الهوى
أسدلي فوق غرام الأمسِ سِجْفا
لا تقولي "شاعر منفردٌ"
أنا لولا وحدتي ما صغت حرفا
لا تلومي الشعر في إيلامنا
إنما الدنيا بغير الشعر منفى
لم تعد غير رؤى الشعر التي
تزرع الآمال إشفاقاً وعَطْفا
فاهجريني أو هبيني "يوسفاً"
همَّ أن يفعلَ شيئاً ثم عفّا